الفصل الخامس

المسيحية والخدمة الاجتماعية

(ان لاوضاع العبادة الخارجية وأحاسيس التصوف الداخلي ، مكانتها في المسيحية. ولكن ينبغي أن تبقى هذه كلها مظاهر خاضعة لما هو اقوى منها. ولسنا نقدر على الادعاء أن أيهما يمثل لوناً خاصاً من الالوان التي خلعتها المسيحية على الاخلاق. اما الخدمة الاجتماعية فهي الخاصية البارزة التي امتازت بها المسيحية. ولذلك سنبحث في هذا الفصل مقام الخدمة الاجتماعية في أخلاق المسيحية)

قلت إن الخدمة الاجتماعية من الخصائص البارزة في المسيحية. و بين بعض الجماعات التي تدين بالمسيحية في بلدان كثيرة ، نرى الخدمة الاجتماعية قد خسفت أمامها كل شيء يتعلق بالدين — حتى الصلاة والتأمل ومعرفة الله وعبادته — وأمست هذه في المرتبة الثانية اذا قيست بالجهود التي تبذل لتحسين الأحوال الاجتماعية مادياً واقتصادياً

وهذا ما سأتولى بحثه الآن :

التفرقة بين الزهد وبين الخدمة الاجتماعية

ومع انني ألمحت الآن الى أن الخدمة الاجتماعية احتلت المكانة الاولى قبل الزهد والتعبد ، الا أننا سنرى أن هناك تماثلاً قوياً بين الموقف المسيحي تجاه الزهد و بين الموقف تجاه الخدمة الاجتماعية . وقد قامت الفكرة المسيحية في الزهد ، كما رأينا ، على مبدأ بعيد عن فكرة انكار قيمة الحياة وانتباذ السعادة الطبيعية، على نحو ما أوصت به بعض الأديان الاخرى. كذلك بَعُدت الفكرة المسيحية في الزهد عن مبدأ قبول الحياة والنظام الطبيعي كأنهما أسمى ما لدى الانسان من خير، وكأنهما المشهد الوحيد لتبادل علاقات الانسان مع الله على نحو ما ذهبت اليه بعض الأديان الفطرية البدائية. انما قامت فكرة الزهد في المسيحية قبل كل شيء على مبدأ ترويض النفس واطلاق الروح من النظام الطبيعي المجرد، وتقوية الشعور بالخطية والاحساس بوجوب المصالحة مع الله. وحسب التعليم المسيحي لن يمكن اتمام هذه المصالحة بجهودنا المجردة ، بل قد تمّت مبدئياً بوساطة المسيح نيابة عنا . على أن قبول الفرد لما أتمه المسيح ينطوي على انكار الذات . وانكار الذات ، كما يفهمه المسيحيون ، ليس اذلال الذات ولا

إليزابث فراي

السيدة الأنكليزية النبيلة التي وهبت حياتها لخدمة الاجتماعية

في إصلاح السجون والعطف على السجينات .

افضلها . فان المسيحية تقدّر شخصية الفرد تقديرا يأبى معه أن يجعل فقدانها هدفاً من أهداف الزهد ، ولو أنه قيل في الانجيل الكريم انه ينبغي أن نكون متأهبين لاضاعة الحياة لكي نجدها في وضع أسمى وأرقى من وضعها الحالى وهي محوطة بالملابسات والأحوال الارضية

أساس واجب الخدمة الاجتماعية :

يقوم واجب الخدمة الاجتماعية في المسيحية على الوصية القائلة بمحبة القريب كالنفس ، وهي ثاني الوصيتين العظيمتين . وتبدو آثار العمل بهذه الوصية في العلاقات التي توثقها الربط الاجتماعية بين الخلائق البشرية — سواء أكانت عائلية أو قومية أو دينية أو طائفية أو غيرها — دون أن تتقيد باية جماعة معينة محدودة . وقد شرح يسوع هذا المبدأ في مثل السامري الصالح [1] الذي علّم فيه أن انساناً تفصله عنا أقوى الحواجز الجنسية والدينية هو القريب بعينه الذي ينبغي علينا أن نعاملة معاملة شخص محبوب لدينا ، بل أن نعامله كأنفسنا . فلا يمكن اذاً أن نحصر الوصية القائلة بمحبة القريب كالنفس ، في حدود

---

(١) لوقا ١٠ : ٣٠

الاسرة أو الامة أو الطبقة أو الجنس . كما أن المسيحية لم تجعل الفرد مجرد وسيلة لبلوغ غايات الجماعة التي هو عضو فيها مهما كانت تلك الجماعة . وذلك لانها تفترض مبدئياً ، في القاعدةالتي وضعتها عن محبة القريب كالنفس ، ان هناك قيمة متساوية في كل شخصية انسانية ، قيمة غير محدودة لانهائية

والخلود حسب التعليم المسيحي ، هو رجاء موضوع أمام الفرد البشري ، ومع ان الخلود في العهد الجديد ، يدور حول التفكير عادة في مصطلحات الحياة «الاجتماعية» ، ويُنظر اليه كاستمرار لهذه الحياة الحاضرة التي تحياها الكنيسة « كجسد المسيح » الا أن اتحاد أعضاء الكنيسة في تلك الحياة الاخرى يُنظر اليه كعلاقة مشتركة تربط الأفراد بشخص هو المسيح كرأس للكل . ومن ثمّ نرى أن فكرة الخدمة الاجتماعية التي توصي بها الوصية الثانية ، وصية محبة القريب كالنفس،لا تنسجم مع اهتمام الفرد بخلاص نفسه دون أخوانه الذين يكوّنون معه شركة المفديين، كما انها لا تنسجم مع أي نوع من أنواع «الاشتراكية» التي تنظر الى الفرد البشري كوسيلة في حدّ ذاته لا غاية

الفكرة المسيحية عن الحرية :

كذلك ينبغي ألاَّ تعترف الجماعة ، التي تكون فيها الخدمة الاجتماعية رابطة مشتركة ، بنقص أو انحطاط أي فرد بشري بسبب جنسه أو طبقته أو نوعه . وقد أيد هذا الرسول بولس في صدر المسيحية بقوله : «ليس يهودي ولا يوناني ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر ولا انثى لانكم جميعاً واحد في المسيح يسوع»[1] وانه ليخيل الينا أن رسالة المسيحية الى العالم لم تكن مقتصرة على انجيل يسوع المسيح بل حملت معها أيضاً التقاليد الاخلاقية الموروثة عن دين اسرائيل ، فكان لهذا اثره في اعاقة تطبيق المبدأ الذي نادى به الرسول. وقد عملت تلك التقاليد على اخضاع العبد لسيده والمرأة لبعلها ، وان تكن قد أوصت بالمعاملة اللينة الرقيقة في حالة العبيد، و بالولاء الزوجي في حالة الزواج. أما التحرير التام للعبد او للمرأة فلم تسارع الكنيسة المسيحية الى توكيده وتنفيذه حتى بعد أن صارت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية . ولم يكن هذا داخلاً في برنامج الكنيسة . بل إن المسيحيين في العصور المتأخرة قد أساغوا لانفسهم أن يقاوموا باسم المسيحية

---

(١) غلاطية ٣:٢٨

الأساليب المقترحة لتحرير العبيد أو مساواة المرأة بالرجل . ولم يكن هذا مستطاعاً الا باغفالهم حقيقة تاريخية ووضعهم تقاليد اسرائيل في مستوى واحد مع الناموس الالهي الذي أعلنه المسيح. ومع تسليمنا بأهمية العهد القديم ، ومع تسليمنا بأن التقاليد الأخلاقية في دين اسرائيل هي بمثابة «الفرش» التاريخي للآداب والأخلاق المسيحية ، فانه مما يتناقض مع المبادىء المسيحية أن ننزل كل ما تحتويه تلك التقاليد اليهودية ، من حيث سلطانها الالهي، في مستوى واحد مع الوصايا والأحكام التي أذاعها يسوع حاملة جوهر الناموس الالهي وخلاصته

ولم يتسرب الى أحد من المسيحيين أي ظن بان المسيحية تنكر على المرأة مساواتها بالرجل ، أو على العبيد المساواة بالأحرار ، من حيث المقدرة على بلوغ أرفع مراتب القديسين . والواقع أن المسيحيين قد أغدقوا على احدى النساء — هي أم يسوع — كرامة وتوقيراً لم يفز بهما أي قديس آخر . ويسير علينا أن نفهم كيف نظر المسيحيون — في الحقبة الأولى التي تأثرت فيها الحضارة الغربية بالمؤثرات المسيحية — الى تحرير المرأة في الهيئة الاجتماعية تحريراً تاماً بمثابة تنزل وانحطاط الى المستوى الأخلاقي في هيئة اجتماعية اباحية في الشئون الجنسية.

نعم يسيرٌ أن نفهم كيف حسب أولئك المسيحيون — وهم الذين ورثوا التقاليد الأدبية عن دين اسرائيل الذي كان لهم بمثابة «الفرش» التاريخي للتعاليم المسيحية عن السلوك وعن كرامة الاسرة — تحرير المرأة بمثابة تنزل الى مستوى اجتماعي يمجُّه اليهودي، اكثر منه اجراء ضرورياً اقتضته المساواة الدينية داخل الكنيسة من حيث «وسائل النعمة ورجاء المجد». ولم يخامر أحد من المسيحيين أدنى شك في أن للمرأة حقاً مساوياً للرجل في التمتع بمزايا الاشتراك في الأسرار المقدسة في الحياة الحاضرة، والرجاء في صلة مغبوطة مع المسيح في الحياة الاخرى

كذلك لم يكن قَلْب النظام الاجتماعي الذي انطوى عليه بلا شك تحرير العبيد، من المسائل التي عُنى بها المسيحيون الاولون، وهم الذين آمنوا أن ملكوت العالم الذي كان الرقُّ من أحد مظاهره، ليس ملكاً لله، ولن يكون هكذا. فضلاً عن أنهم توقعوا انهيار هذا النظام القائم بمجيء المسيح الثاني. وهنا أيضاً كان العبد مساوياً لمولاه في مزايا الاشتراك في الأسرار المقدسة في الحياة الحاضرة، وترقّب صلة مغبوطة مع المسيح في الحياة الأخرى. ولكن حينما صارت مشاكل الرق وتحرير المرأة من المسائل السياسية العملية في اوربا في العصور

المتأخرة ، نهض أنصار القضيتين فوجدوا في مساواة الجنسين وفي المساواة بين جميع الطبقات في نظر الله ، مبرراً قوياً لجعل هذه المساواة حكماً من أحكام الدين التي تدين به الكثرة الساحقة من أهل أوربا

ارغام المسيحي فوق القومية :

قلت في غير هذا المكان ان الامبراطور يوليانوس حاول عند جلوسه على العرش . و بعد أن صارت المسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية على يد عمه قسطنطين،أن يعيد عبادة الآلهة القديمة و يخلع عليها الكرامة التي سلبها منها الامبراطور قسطنطين. وقد ظنَّ العاهل الروماني أنه مستطيع، بادخال عناصر الرحمة وخدمة الأنسانية والعناية بالغرباء ، أن يقاوم المسيحية ، و يكتسب الأنصار والأولياء و يجعل ذلك الدين القديم منافساً للمسيحية بعد أن يلبسه الثوب الذي تباهي به النصرانية

وقد كانت مبادىء خدمة الانسانية من العناصر الجوهرية في المسيحية ، قد وضعها المسيح ذاته في مثل السامري الصالح. حيث لقَّن البشر أن العطف الانساني ينبغي الاَّ يُحصر في وطن واحد ، ولا يقتصر على جنس دون سواه من الأجناس . ومن

دواعي الأسف أن قوة الشعور القومي الوطني قد طغت على الأخاء المسيحي الذي يتسامى فوق الوطنية الضيقة ، فنسي هذا المبدأ الجليل مَن يدعون أنفسهم مسيحيين . على أن أحداً من المسيحيين لن يقدر أن يدّعي أن مؤسس المسيحية ودعاتها الأولين ينتمون الى أمته وشعبه . وقد كان لهذه الحقيقة فضل في تذكير، حتى الذين نسوها أو تناسوها، أن لا حق لهم كأبناء وطن معين في المطالبة بمزايا خاصة بسبب دينهم المسيحي (ويُستثنى من هذه القاعدة الافراد الذين تحدروا من سلالة يهودية، والذين يُحسبون أقلية بين المسيحيين، ولم يكوّنوا بأنفسهم وحدة قومية معينة بسبب بعثرتهم بين شعوب كثيرة وانضوائهم تحت لواء الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها لأسباب سياسية)

وليس من شك أن كل أمة اتخذت المسيحية ديناً لها قد اصطبغت فيها المسيحية بلونها القومي وتشربت بمزاجها الوطني . وليس مما يتناقض مع المبادىء المسيحية ، كدين يعرف للتاريخ حقه اكثر من سائر الأديان، أن تصطبغ بالصبغة القومية في كل أمة تدين بها . ولكن مع التسليم أن لكل أمة نصيباً في بناء صرح المسيحية وتحقيق مطالبها كاملة ، فانها لا تحسب الأمة الهدف الوحيد النهائي الذي يتجه اليه الولاء الأدبي

ولقد أخطأ ذلك الداعية الالماني الذي قال «ان كيان الدولة يبرر كل تضحية، ويسمو فوق كل ناموس أدبي». فان قوله هذا لا يتفق بحال مع التعاليم المسيحية. وفي مكنة المسيحي، بل من واجبه، أن يحب وطنه ويضحي بنفسه في سبيل خدمته، كما يحب أسرته ويضحي بنفسه في سبيلها، ومع ذلك فان ولاءه كمسيحي لن يقتصر على أسرته، بل يشمل الاسرة البشرية الجامعة والله أب لها، والملكوت الجامع والمسيح ملك عليه. ومن ثمَّ لا تكون الوطنية الا عنصراً ثانوياً من وجهة النظر المسيحي الحقة. ذلك «لان الوطنية ليست كافية» في نظر المسيحي على حد قول الممرضة الانكليزية التي بذلت حياتها لاجل وطنها في الحرب العظمى [1]

المثل الاجتماعي الاعلى في المسيحية:

وان هذا الملكوت الجامع وعلى رأسه المسيح مَلك له، لما يذكرنا بأهمية التعليم المسيحي في العصور الاولى عن مُلك الله أو سلطانه. وهذا في الواقع هو المثل الاجتماعي الاعلى في

---

(١) هي «مس ايدث كافل» التي أعدمها الالمان في بلجيكا في الحرب الكبرى

أحاديث يسوع نفسه . فان فكرة حلول عصر يملك الله فيه على شعبه ، إما مباشرة أو بوساطة نائب ممسوح بمسحته ، قد رفرفت فوق أعين كثيرين من بني اسرائيل في بكور العصر المسيحي. ومن ثمّ نرى المسيح يشير الى نفسه بانه ذلك «المسيا الممسوح» الذي ينبغي أن يتجه اليه ولاء مواطنيه . ولقد تحدث كثيراً عن ملكوت الله ، وتقدم الصفوف منادياً بمجيئه على الارض ، واستخدم اسلوباً يُفهم منه أنه هو الذي يباشر هذه السلطة الملكية على الارض ، فرحّب قبيل موته بولاء الذين هتفوا له واستقبلوه كابن ملوكهم الاقدمين ، الآتي باسم الرب. [1] ولطالما استعان بالاوصاف التشبيهية التي وردت في المؤلفات الاخرى عن تلك الحالة المرتقبة ، حالة الفوز والغبطة ، فاتخذ منها شبهاً باقامة عيد أو وليمة يأكل ويشرب معه على مائدته أتباعه الموالون [2]

وقد تعرضت تلك الاوصاف التشبيهية ، كما تعرضت الفكرة ذاتها المتعلقة بملكوت الله ، الى التأويل الحرفي الجامد ، بينما كانت تعاليم المسيح كلها متجهة الى الناحية الروحية فيها . وتقضي تلك التعاليم أن الودعاء في الروح ، والمضطهدين لاجل

---

(١) مرقس ١١:٩ ومتى ٢١:٩ (٢) لوقا ٢٢:٣٠

البر ، والمتواضعين كالاطفال الصغار ، هم الذين يرثون ذلك الملكوت [1] . ولن يكون هذا أثراً من آثار الاعتماد على الامتيازات الدينية، فان الزناة والعشارين (وهم فئة جباة الأموال الذين أثروا من وراء المظالم وابتزاز أموال الناس) سيدخلون ذلك الملكوت قبل شيوخ الدين وأساتذة الشريعة وأدعياء التقوى . لان الاولين من فرط شعورهم بالحاجة الى الغفران يستجيبون الى نداء التوبة الذي لا يلقى الاّ آذاناً صماء حينما يوجه الى قوم يزعمون أنهم أبرار فلا حاجة بهم للتوبة [2] . كذلك لم تكن التعاليم مقتصرة على أبناء اسرائيل،فان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب و يتكئون في حضن آباء العهد القديم ابرهيم واسحق و يعقوب ، بينما يبقى خارجاً أنسال أولئك الآباء غير الجديرين بآبائهم [3]

والى هذا الحد قد نزعم أن ذلك الملكوت سيكون حالةمن حالات المجد الارضي للذين حُرموا لذته في هذه الحياة . ولكن القول ان ملكوت الله «داخلكم» وفي «وسطكم» [4] ، يتجه

---

(١) متى ٥:٣و١٠—و١٩:١٤

(٢) متى ٢١:٣١ ولوقا ٥:٣٠ (٣) متى ٨:١١ (٤) لو ١٧:٢١

بافكارنا الى اتجاه آخر. فان ملكوت الله، وان يكن حادثاً مستقبلاً، سوف تبدو مجاليه ومظاهره في كمالها، حالاً في كل هيئة أو جماعة تعيش في طاعة المحبة لارادة الله

ومن ثمَّ نرى يسوع يشبِّهه في أحد أمثاله [1] بنبتة صغيرة تكبر فتصير دوحة كبيرة. وفي أمثال أخرى [2] يورد تشابيه تدل على أن هذا الملكوت قائم الآن لمن يتبعونه، اكثر منه حالة من حالات المستقبل. كذلك نرى في توكيد بولس الرسول أن ملكوت الله ليس أكلاً وشرباً — ليس وليمة حرفية — بل براً وسلاماً مفرحاً في الروح القدس [3] — تأويلاً صريحاً لتعليم يسوع وترديداً لصدى أقواله حين يقول ان طلب ملكوت الله وبره من الواجبات الأولية في التلمذة له [4]

وثمة علاقة وثيقة بين فكرة الحالة السمائية في الآثار الاولى المتخلفة عن المسيحية وبين الخدمة الاجتماعية التي كانت مظهراً بارزاً من مظاهر المسيحية، في كل أطوارها. ولسنا ننكر انه كان بين المسيحيين كثير من التقوى ذات الصفة الفردية، وكان كثيرون من الزهاد والمتصوفين الذين تاقت نفوسهم أن يطيروا

---

(١) مرقس ٤:٣٠ (٢) متى ١٣:٤٤و٤٥ (٣) رومية ١٤:١٧

(٤) متى ٦:٣٣

« وحدهم الى ذاك الوحيد » وكان مثلهم في هذا مثل الفيلسوف «بلوتنيوس» الذي كان له ، وهو غير مسيحي، أبلغ الأثر بكتاباته على القديس المسيحي «أوغسطينوس» وعلى الفكر المسيحي بصفة عامة . وكان أيضاً فريق من المعتزلة المتنسكين الذين لذّ لهم أن يقتبسوا عن الفيلسوف الروماني «سينكا» وهو غير مسيحي ، قوله إنه كان يشعر بانحطاط في نفسه كلما وُجد في وسط جماعة. وكان هناك أيضاً عابدون لم يكترثوا بشيء غير أنفسهم والله ، وتائبون غيورون ركّزوا كل اهتمامهم في خلاصهم الفردي

كان في تاريخ المسيحية كل هؤلاء ، ولكن أحداً منهم لم يكن مخلصاً الاخلاص كله لتقاليد العهد الجديد ، حيث لا يُنظر الى الخلاص الاّ نظرة اجتماعية ، فانه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسم المسيح، يتحقق لهم حضوره [1] . والله لا يُنظر اليه « كواحد في عزلة » بل كأب لابن محبوب هو البكر بين اخوة كثيرين. [2]

ومن ثمّ نرى طبيعة الله المعلنة في الاختبار المسيحي، لا يُعبر عنها الاّ باسم مثلث: الآب والابن والروح القدس. ومما ينطوي تحت هذا الاسم أن حياة الجماعة المسيحية، التي هي جسد المسيح، تنساب اليها روحه ، هي حياة الله الخالدة المعلنة في يسوع

---

(١) متى ١٨: ٢٠ (٢) انظر مرقس ١: ١١ و ٩: ٧ ورومية ٨: ٢٩

والمستقرة فيمن لهم هذا الروح الذي كان في يسوع. وكل دين يشجع أنصاره على التفريق بين الاختبار الديني والاختبار الاجتماعي لا نحسبه مسيحية حقة صادقة. أما علة هذا التشديد على الخدمة الاجتماعية في المسيحية، فانا نراه متأصلاً في ذاك الذي قال: مهما فعلتم باحد اخوتي فبي فعلتم (١)

المسيحية والحرب:

غير خافٍ أن بين الجماعات المسيحية من يحسب أن الاشتراك في الحرب باي شكل ما محظور حظراً باتاً على المسيحيين. ولكن ليست هذه هي الفكرة التي اعتنقتها الكنيسة المسيحية العامة. فالمسيحيون يسلمون بصفة عامة أن مبادىء المسيحية لا تتفق والعداء بين البشر، ولكن كثرة المسيحيين يسلمون أيضاً أنه ما دام فريق كبير من الجنس البشري لم يعترف بعد، بشرعة محبة القريب كالنفس، فان ظروفاً قد تطرأ تكون فيها الحرب سائغة. ومنذ العصور الاولى في المسيحية، انخرط المسيحيون في سلك الجيوش المحاربة، وحتى في العهد الجديد حيث يذكر أن

---

(١) متى ٢٥: ٤٠ و ٤٥

بعض قواد الحرب التقوا بالمسيح واتصلوا به ، لم يؤثر عنه أنه أمرهم أن يطلّقوا وظائفهم على أساس عدم مشروعيتها

ولكن ما دامت الشريعة المسيحية تأمرنا أن نحب القريب كالنفس ، فليس مما تسيغه المسيحية أن يبغض الانسان أخاه ، ولو قضى الواجب على المسيحي بظروف خاصة أن يحارب ويقتل زميلاً له في الانسانية . وينبغي أن يكون موقف الجندي كخادم مأمور ، ينفذ القانون وحكم القاضي ، على الاّ يكون في موقفه هذا شيء من سوء النية والحقد الشخصي ، وأن يقتصر الأذى الذي يوقعه بعدّوه على ما هو ضروري فقط لاخماد قوة مقاومته . أما الجريح والاسير فيحاطان بكل رعاية واجبة. ولسنا ندّعي طبعاً أن هذه الروح قد روعيت في كل الحروب بين المسيحيين ، انما نقول أن حرباً بهذه الروح يقدر الضمير المسيحي أن يسيغها

المسيحية والثروة :

ويخيل الينا أن بعض أقوال المسيح تعيب تكديس الثروة كما تعيب اشعال نار الحرب. ومهما تكن فعال بعض المسيحيين غير منسجمة على مبادىء دينهم ، فمما لا شك فيه أن من الاحكام

الجوهرية في المسيحية أن النجاح الاقتصادي لا يساوي شيئاً — كما هو الحال في العهد القديم أيضاً — اذا قيس بالجزاء الذي يناله الفرد من جزاء الفضيلة وطاعة شريعة الله، لا سيما أن حياة المسيح التي عاشها كانت حياة الفقر والالم، وكانت مرضية لله الى أبعد حد.

وقد كان الباعث الى كثير من الزهد والتقشف في المسيحية الرغبة في اظهار محبة المسيح في مشاطرته فقره وآلامه. وبينما اعترفت الكنيسة المسيحية، بله المسيح نفسه، أن هناك مكاناً للغنى والاغنياء في نظام الهيئة الاجتماعية، فان المسيحية تفرض على أتباعها أن يرغبوا عن المقتنيات الارضية، وأن يكونوا متأهبين للتنازل عنها لاجل خاطر المسيح اذا اقتضى الحال، ولو أن المسيحية، كما رأينا، تعتبر انكار الذات، لا كوسيلة لكسب حسن التقدير أو القوة، بل كوسيلة لترويض النفس على انكار الميول الذاتية والشهوات النفسية لغرض تقوية محبة الله والقريب وجعل هذه المحبة المبدأ السائد في الحياة البشرية

عناية المسيحية بالخطاة والمنبوذين :

والبيان الذي شرحناه هنا عن فضل المسيحية على الاخلاق ينقصه ظاهرة هامة لم نوفها حقها من القول. فالخدمة الانسانية

التي تفرضها المسيحية لا تعلو فقط فوق كل الفوارق التي تفصل الخلائق البشرية ، والتي قد نحسبها ناشئة عن عدم المبالاة من الوجهة الادبية. فمما لا شك فيه أن من المبادىء المسيحية أنه «في كل أمة الذي يتقيه و يصنع البر، مقبول عنده» [1] ولكن حتى الذين لا يتقونه ولا يصنعون البر لهم في محبته المفتدية نصيب . فقول المسيح انه قد جاء « ليطلب و يخلص ما قد هلك » [2] ، والأمثال التي يصوّر فيها الله كراعٍ يسعى وراء الخروف الضال [3] ، أو كالاب يركض ليستقبل ابنه الشارد و يقع على عنقه و يقبله [4] واللوم العنيف الذي ناله من القوم المحترمين في عصره بسبب مخالطته للعشارين والخطاة [5] ، واشفاقه الودود على المنبوذين والمطرودين كما في قصص زكا [6] والمرأة الخاطئة [7] — هذه كلها شواهد صارخة ألهمت أنبل النفوس المسيحية لتسعى الى الخدمة ، لا خدمة الذين تفصلنا عنهم حواجز الجنسية أو المراتب الاجتماعية فقط ، بل خدمة الذين نشعر ازاءهم بشيء من التفوق الأدبي، فان هذا الشعور وحده قد يضلُّ عواطف الرجال والنساء

---

(١) أعمال ١٠:٣٥ (٢) لوقا ١٩:١٠ (٣) لوقا ١٥:٤
(٤) لوقا ١٥:١١ (٥) مرقس ٢:١٦ (٦) لوقا ١٩:١ (٧) لوقا ٧:٣٦

ولا جدال، على ما أظن، في ان هـذه الخدمة هي مجد لمسيحية . ولست أنكر انه في أزمنـة وأمكنة أهمل المسيحيون هذه الخدمة و بزّهم فيها غير المسيحيين . ولكن هـذه الخدمـة متصلة اتصالاً أصلياً ممتازاً في حياة يسوع وتعاليمه ، دون أن تجنح الى شيء من التفاخر أو ملاطفة الذات أو الرغبة في نيل الجدارة، مما رأيناه في ضروب التقوى المسيحية .

وخدمة الانسانية،من الوجهة المسيحية،تلهمها رغبة حارة في الاقتداء بالمسيح في انتشال الساقط المنبوذ ، على شرط ان ندعوه الى التو بة ، تلك التو بة التي لا تفصله حاجته اليها، عن غيره من الناس الذين لم يقاسموه عاره أو سقوطه . لأنه عند ما يوازن المسيح الخاطىء الواحد التائب «بالتسعة والتسعين الذين لا يحتاجون الى توبة»[1] إنما يمتزج قوله بشيء من التهكّم في التعبير . وقول بولس الرسول «الكل أخطأوا وأعوزهم مجد الله»[2] ينطبق تماماً على فكر سيده وربه .

ولنا أمثولة سامية في قول السيد الذي ألمحت اليـه الآن ، بان هناك فرحاً لملائكة السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين لا يحتاجون الى توبة[3] . أما تلك الأمثولة فهي

---

(١) لوقا ١٥:٧ (٢) رومية ٣:٢٣ (٣) لوقا ١٥:٧ و١٠

ان الانسان الذي سلك نهج الفضيلة يجب عليه، في تقدير مكانته حق قدرها، ان لا يدّعي لنفسه فضلاً أو استحقاقاً على ما فعل. بل يسوقه تقديره لنفسه الى الاعتراف بقصوره ومشاركة هذا الساقط التائب في ارجاع الفضل لرحمة الآب السماوي ومحبته، الذي أنقذه من خطيته.